في حوار الحضارات:
أسئلـــة الحـــوار
بحث في ظل الإرباك المرجعي

بقلم: أ. د. عمر بوقرورة
كلية الآداب/ قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باتنة

تقديم:

الحوار سمة العالمين الذين يريدون أن يمســكوا دومــا بالأســباب السليمة التي تمكنهم من التعامل مع الذات أولا، ومع الآخر في إطـــار التعامل الإيجابي الذي يضمن ديمومة الحياة، كما يوفر الاتجـــاه نحـــو المستقبل في ظل حركة حضارية عالمية عاقلة عادلة، غير أن المشـكلة في حوار الحضارات والثقافات والأمم... إنما تكمن في ماهية الحـــوار نفسه الذي يراه البعض بديلا انيا طيعا يفرضه ما في هذا العـــالم مـــن مختلف سياسي وثقافي وحضاري أدى إلى صـــراع آل بـــدوره إلـــى المركزية المجسدة بحضارة ذات قطب واحد (العولمة)، فهي المحـــاور وهي موضوع الحوار ولا شيء سواها.

ونرى الحوار بمعالم وحدود يجب أن تتأسس بأسئلة دقيقة تراعـــي ماهية الآتي (الحوار، المحاور) كمـــا تســـتحضر الأســـس الســـليمة للمستويات المرجعية والمعرفية التي يملكها المتحاورون، وفوق هذا فإن شرط الحوار الأكبر أن نعرف بدقة علمية ماهية الحضارة نفسها التـــي نضعها في واجهة الحوار.

أسئلة الحوار (البداية)

وبالرأي المذكور ندخل الموضوع بجملة من الأسئلة التي نؤكد بـــها أن الحوار ليس سهلا، وأنه أخطر من أن نجعله بين باحثين ومثقفين، أو بين مؤسسات ذات طابع أكاديمي خاص، أو بين مجموعـــات سياســـية تلتقي في مؤتمرات لتخطب بالمتاح الذي يضمن المصلحة المشتركة إلى

حين، لأن المصلحة في هذه الحالة متغيرة خاضعة لما يمليه العالم، والعالم هنا هو الأقوى دون سواه، ومن الأسئلة ما يلي:

هل حوار الحضارات والثقافات والأمم نمط من الحياة جديد فرضه الضمير العالمي الذي انتبه من طينته ليمارس شيئا من التكفير عن سيئاته التي فرضتها الأنساق المشكلة للحضارات...؟ وبدقة نذكر أن الأنساق هنا أوربية بالدرجة الأولى , لأن أوربا هي المعني الأول بالتكفير عما ألحقته بالآخر الضعيف (نحن)، حين فرضت عليه سيطرة تجسدت بالفكري والمادي معا، والفرض مؤلم لأنه أوجد في (النحن) الإنسان الذي لا يستطيع أن يحاور، لأنه ببساطة لا يملك ذاته، وكل ما يفعله أن يمسرح الأمر في إطار الظاهر الذي قد يجود يوما ما بمسوغات المضمر.

وهل الحوار محاولة آملة حالمة يقوم بها أناس في إطار الإجراء الوقائي الذي يمنع ما تبقى من إنيات الحضارة من الاندثار، أو التآكل بفعل عولمة لا تبقي ولا تذر، وفي ظل هذا الأمل نذكر أن المعني هنا دائرة كبيرة بعض عناصرها " نحن " ذلك لأن الذين يجهدون أنفسهم الآن في ساحة الحوار إنما هم منا في مقابل صدام الحضارات الذي لم يلغه الخطاب المعولم أبدا، وبعض الأدلة من الواقع العالمي تؤكد ذلك، وأكبر البعض أن يدعو رئيس أكبر دولة في العالم إلى حرب ضد الإرهاب بصيغة الاستفزاز الحضاري (العدالة المطلقة) هذه الصيغة التي ألقت بالضمير العالمي في السؤال المحرج لماذا الصدام ونحن نحن إلى الحوار؟!

أم أن الحوار دعوة مخادعة بطلاها: قوي يريد أن يمن على الآخر بالظاهر الذي يخفي سمات القوة المؤيد بالمرجع الحضاري المستبد المبطش بمن حوله، وضعيف ينطلق من ظنيات تحتوي الحلول الآنية الممكنة لمشكلاته المعقدة، ولعلها الظنيات التي تمنحه في الوقت نفسه شيئا من التوازن المفقود في واقعه بفعل كيان مهلهل؟

أم أن الحوار ــ أخيرا ــ هو تسلية فكرية وثقافية تبديها نخبة من الباحثين والمفكرين الذين جادلوا الأنا والآخر بالمحتمل (الحوار) فكان الرد بالقطيعة التي رمت بالنخبة في صوامع، وفي أديرة، مسيجة بنسق فكري وسلوكي رافض متمرد؟

وبكل ما مضى نسأل الذي سأله البعض " هل حوار الحضارات الذي نبتغيه سيوظف لهدف أكبر... كتكوين وعي عبر ثقافي " cross cultural awareness " يتخذ منظورا للعلاقات الإنسانية التي نرجوها في الألفية الثالثة ؟، أم أنه سيكون خطوة في بعث روح الدولية الثقافية " cultural internationalism " من جديد والتي يراد لها أن تحمي السلام العالمي؟ أم أن الحوار نفسه هو الهدف والغاية..[1].

والجواب عما سبق - وإن أرجأنا جل عناصره إلى حين الحديث عنها في صلب الموضوع - مؤكد بالإيجاب الذي يعني أن الحوار سلوك إنساني نبيل، وأنه ممكن بين الحضارات والأمم بشرط توفر الآليات المسوغة لإقامة حوار مفيد مؤصل بالإيجاب الذي يضمن الحياة بعيدا عن عالم الصدام.

وفي ظل السابق المؤكد بوجوب الحوار نسأل: لماذا الحوار الآن؟ والآن المقصود هنا هو نهاية القرن العشرين وبداية القرن الجديد، حين ساد العالم جديد في العلاقات السياسية والاقتصادية بخاصة ؟

ونجيب بقولنا إن بعضنا قد اعتقد خطأ أن العولمة أساس جيد للتواؤم والتجاور والتوحد، فلا حاجة إذن إلى مسعى لإقامة حوار بين بني البشر فهم متفقون بالضرورة وهم مجموعون في عولمة رآها البعض حلا لمشكلاته في إطار الحنين الواهم، بينما اعتبرها البعض الآخر قدرا لا يمكن تجاوزه أو العمل ضده في إطار عجز حضاري لا يملك فيه أهله إلا " نعم" التي تلقي بهم في عالم التبعية من جديد.

وجوابنا مؤكد بما فعلته بعض الجامعات والمؤسسات العلمية والاقتصادية والثقافية في العالم العربي حيث أعفت نفسها من افتراضات الخلاف والتنوع والصدام التي تفرضها العولمة نفسها في إطار المركزية الأمريكية المهيمنة، وعكفت - بعدئذ - على خطاب تهليلي ترويجي مستسلم في العالم العربي (إن بالقبول أم بالرفض)، وجاء الامتحان العسير (قضية فلسطين) الذي أكد - بما لا يدع مجالا للشك - أن العرب والمسلمين أيضا واهمون، وأن الاتفاق بالتكافؤ البيني الخاضع لإنيات الأمم غير ممكن، وأن العولمة نسق أمريكي قوي لا يقبل الآخر ولا يحاوره إلا بصيغة (الأعلى والأدنى).

ويبدو أن أوربا نفسها- التي يعتقدها البعض طرفا رئيسيا في مصدر العولمة - قد أدركت كنه العولمة ومضمرها، فتعاملت معها

بحذر شديد، رغم أن السمات الأساسية للمتغير الحضاري في العولمة إنما هي من إنتاج الإنسان الأوربي نفسه، لكن أمريكا - كعادتها - خطفت النتائج لتجعلها أمريكية في إطار عقدة الحضارة (المصدر)، وكذلك تفعل أمريكا في كل أن (الحرب الكونية الثانية نموذجا).

فالحوار - اذن - صيغة واجبة الحضور في الآن وبإلحاح، والمطلوب من الضمير العالمي في بدايات هذا القرن الجديد أن يعي أن شعوبا وأمما ومنها (العرب والمسلمون) ترفض أن تدخل هذا القرن كما دخلت القرن العشرين بضياع وبنفي في الزمان وفي المكان , فالواجب كل الواجب أن يسمع الأنا الآخر، بما يملك، وعلى الآخر أن يقبل، وبدون ذلك يغيب الحوار ويحضر الصدام.

والحوار مؤكد ببواطن الأمور التي تتكشف مظانها بإنسان يرفض أو يقبل وفقا لكينونته، لا لكينونة الآخر أو العولمة، فأصل المشكلة هو الإنسان، وأصل الحوار أن يتجسد بالإنسان الذي يعيش الاستخلاف في الأرض بتنوع جغرافي وعقيدي وثقافي لا يمكن أن يزول أو يجتث من فوق الأرض، فهل يستطيع العالم الجديد المعولم أن يحقق هذه المعادلة؟.

بين ماهية الحضارة وماهية الحوار:

الربط نراه هنا واجبا بين الحضارة والحوار، ذلك لأن الحوار سمة إنسانية نبيلة تتجلى بالألفة والمودة وبالتعارف الذي يفضي إلى شراكة تتواءم فيها آليات الحياة وتتجاور، ونعلم يقينا أن من الحضارات من لا يحاور، وأن ذلك يتم بمستويات تفرضها طبيعة الحضارة المؤيدة بأزمنة تاريخية ذات صلة بالمتغير الذي يحدث في الحضارة ذاتها، أو في الآخر من حولها.

ففي المستويات نجد حضارة لا تحاور الآخر بمفهوم يخضع لوجودها في الزمان بمتغير يجعلها حضارة استعلاء، كما هو الشأن في الحضارة الأوربية الحديثة التي حضرت في الزمان (ق 20/19) وفي المكان (أفريقيا وآسيا) باستبداد واستعمار بنيته الصوت الواحد الذي يجب أن تخبو دونه الأصوات.

وفي المستويات حضارة لا تحاور لخلل أصاب بنية الأصل فيها، فغير وبدل في عناصر الإيجاب التي آلت بالأمة إلى الانكماش (الحضارة العربية الإسلامية الآن).

وأخطر المستويات أن نجده بحضارة لا تحاور أصلا، ولا تؤمن بأبجديات التحاور، ومثال ذلك حضارة اليهود، التي انفردت بطبع منغلق حاقد ناقم متعال، فرضه العرق والدين، فعند هؤلاء لا نجد الحوار إلا إذا حصل بفوقية تضمن حضورهم مع الآخر الذليل المنكسر، كالحوار الذي جرى في التسعينات من القرن العشرين مع العرب بوهم بنيته " الأرض مقابل السلام ".

فالربط – إذن – هو الخيط المعرفي النجيد الذي يضمن الإجابة عن السؤال من من الحضارات تستطيع أن تحاور؟ والسؤال مهم بالبحث السنني الذي يكشف لنا عن إنيات الأمم وعن حضاراتها التي تجسدت في الواقع بكيفيات وبمفاهيم مختلفة متنوعة يجب ألا تغيب عن الباحث الواعي الماسك بأسباب الأمل.

ماهية الحضارة:

في ماهية الحضارة تتكشف جملة من الصيغ التي تصب في دائرة المعجم المؤيد بالاصطلاح ومنها أن الحضارة " إقامة في الحضر " [2] وهي " المدن والقرى، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار، ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار " [3].

والحضارة مدنية وثقافة في إطار التداخل المفضي إلى الجذر المعرفي الموحد للمصطلح، والحضارة ذات منشأ ديني، فهي في رأي أرنولد توينبي – مثلا– " ذات بنية دينية، وأنها مرتبطة بالكنيسة الكاثوليكية " [4]

والحضارة عند مالك بن نبي قيمة ثقافية بحسب الجوهر، وإنتاج فكرة يدخل بها المجتمع التاريخ بحسب المبدأ، وهي الإنسان والتراب والزمن بحسب المركب الاجتماعي، وهي جملة العوامل المعنوية والمادية التي تؤهل المجتمع للتقدم[5].وقريب من هذا ما نجده عند أبي الأعلى المودودي الذي يرى الحضارة في روح المنتج وفي أصله لا في عوارض تتجلى بالملبس والمسكن والبدائع والصنائع والفنون [6].

إن الصيغ الماضية مهمة لكننا لا نريدها هنا إلا بقدر نقوم به رؤيتنا للموضوع، وندعمها في إطار الاني المفروض بمتغيرات إقليمية وعالمية فرضها طموح الإنسان الجديد الذي اصطدم – كعادته – بالسؤال الكبير فيما يبدو وهو ماذا بعد؟، لقد نهل الإنسان الجديد من الحضارة ذات

المركز الواحد (أوربا ثم أمريكا) وبعد الشرق جاء السؤال الملح الباحث عن البديل الذي يعيد للإنسان توازنه بعد أن أعيته الماديات، وأفقدته صيغ الحياة السليمة.

فالماهية نريدها إذن بعلائق آنية تتمركز في صلب المشكلات التي نعانيها والتي آلت ببعضنا إلى اللجوء إلى الحوار كحل لهذه المشكلات، وبالعلائق تأتي الماهية التي تعني فقط: أن تتجلى الحضارة بإنسان يدرك بمسؤولية الاستخلاف أنه موجود في الأرض بمسوغات حياتية تستلزم تفاعله مع البشر، وتعامله معهم بوجدان آدمي مانح فاعل في إطار شراكة إنسانية.

هذا أسمى ما نراه في معنى الحضارة، فلا معنى لحضارة آنية تعجز عن أن تمنحنا إنسانا يحاور ويناقش وينفتح على العوالم الأخرى بالحق والعدل، وإن ضعفت هذه العوامل أو صغرت، وشيء من هذا قد عناه مالك بن نبي في قوله: " لا يمكن لشعب أن يفهم، أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية "[7] و الحدث الإنساني لا يفهم إلا بإنسانية تمنح الحدث ومسوغات وآليات الحل فيه خصوصيات إيجابية تمنع الشر، وتقي العالم أهوال الصدام.

وفي القران الكريم نقرأ خصوصيات المعنى السابق في قوله تعالى(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) [8] فالإنسان التقي السوي هو الأصل في الحضارة وهو المؤهل للبناء، ودون ذلك يصير المنتج الحضاري بلا معنى، أو بضرر يلحقه بصاحبه، قال تعالى في شأن قوم عاد: (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون) [9]، فالحضارة بالقرآن لا تعني اجتماعها وقيامها على منهج مادي يلقي بها في متاهات الجشع والطمع، بل الأهم أن يتوفر الجانب الآخر الماثل في الروح أو في التقوى فذلك هو العاصم من السقوط، فالحضارة في الإسلام " هي ثمرة التوازن الدقيق بين مرتكز القيم والمبادئ والأخلاقيات، ومرتكز الماديات والوسائل والمهارات عبر حركة الجهد الإنساني لعمارة الأرض وفق منهج الاستخلاف الرباني "[10].

والماهية بهذه الكيفية مهمة بقدر ماهي محرجة للأنا الممارسة للحوار لأنها تستلزم وجود الإنسان العالم العادل الذي يعي مشكلات

البشر، كما يعي البدائل الممكنة التي تتحقق بها إنسانية الإنسان، والحرج مؤصل بالواقع، فالإنسان الذي يحاور قليل، والقلة تكمن في معاصرة وفي حداثة معولمة تمركزت في المادي الذي حول المحتوى الحضاري إلى سلعة، فكل ما في الحضارة معروض للبيع والشراء. وبالحرج نسأل: هل هذا هو الإنسان المعني – بالمفهوم القرآني – بعمارة الأرض ؟ أم هو ذلك الغائب الذي اختفت ملامحه واستبدلت بملمح عولمي أخطر سماته السيطرة التي تؤول في بعض الأحيان إلى الفتك بالإنسان(مجازر شارون في فلسطين نموذجا).

عوائق الماهية:

إن ماهية الحضارة المذكورة مطلوبة هنا بمسوغات معقدة تنحو منحى العوائق التي تفرضها بنية الحضارة نفسها ومنها:

1 – أن الحضارة حضور في الزمن وأنها بذلك مدعاة للفرق بين إنسانين أحدهما فاعل منتج حاضر في الزمن، وحضوره يلزمه بمسؤولية إنسانية تجاه الأنا والآخر، وإلا فسيصبح عائقا على الحضارة نفسها، إذ يعمل على تآكلها حين تفقد إنسانيتها فتظلم وتدمر، أما الإنسان الثاني، فهو الخامل الفاقد لإنيات البناء، وهو المنفي في الزمن، والحل عنده أن يحاور الآخر (القوي) في مقابل استجابة حضارية يضمنها ذلك الآخر، فهل نضمن تلك الاستجابة أم أننا سنلتقي بالإنسان (المتحضر) وهو يفتك بالشعوب في إطار استعلاء أبدي (إفريقيا وأوربا).

2– إن الحضارة مجسدة بالنسبة التي تلقيها في دائرة الخاص الجغرافي والحضاري ففي حضارة المكان نجد " حوض المتوسط، وادي الرافدين، تدمر، سبأ، حوض الأمازون " وفي حضارة الأمة " الأمة العربية الإسلامية، الأمة الأوربية المسيحية، والأمة الصينية وأمم أخرى" والنسبة – بهذا الخاص – مشكلة لأنها تحيط صاحبها بسياج الذات، أو الأنا التي تضغط في اتجاه الخاص الذي يجب أن يسود، والذي يتحول – في بعض الأحيان – إلى سلوك مرضي يؤول بصاحبه إلى السقوط حين يصير عنصريا جشعا تحكمه قواعد السيطرة، يقول مالك بن نبي في شأن الأوربي الذي أقعدته النسبة عن الحضور في الكلية الإنسانية: " الفرد الأوربي يحمل جراثيم الكبرياء دائما لأنه يتلقاها

من الجو الأمومي الذي يتكون فيه منذ الطفولة، ويتكون فيه تصوره للعالم والإنسانية، فهو يعتقد على وجه الخصوص أن التاريخ والحضارة يبتدئان من أثينا، ويمران على أوربا ثم يختفيان فجاة من الوجود، ثم يظهران من جديد بباريس في حركة النهضة... أما قبل أثينا فليس شيء يذكر في ذهن الفرد المشحون بالكبرياء... الذي لا يرى بين أرسطو وديكارت إلا الفراغ [11]

والنسبة تصير عائقا – في بعض الأحيان – في الحضارة الواحدة نفسها حين يشوبها المخلّف الذي يتجسد بانفصام يحدث في المرجعية الفكرية والعقيدية والسياسية، هذا الانفصام الذي نلفي به شعوبا تنتمي إلى حضارة واحدة، لكنها تعتقد بغير ذلك، فهي ترفض النسبة إلا إذا حضرت بالخاص أو بالذاكرة " الفرس، العرب، الخليج، الشرق الأوسط، شمال إفريقيا، الأمازيغ، البنغال، الأتراك، الفراعنة، الفينيقيون....." إن المذكورين مجموعون بحضارة إسلامية وحدتهم في الأزمنة الماضية، كما وحدت النسبة فيهم، لكنهم الان أشتاتا تتقاذفهم أنساب وملل ونحل لا حوار بينها ولا لقاء، وذلك هو المنطقي، فغياب الذات وتشرذم النسبة يستلزم يقينا غياب الحوار.

يقول محمد خاتمي * رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية الذي اقترح عام 2001 ليكون عام حوار الحضارات: "... وهناك مشكلة ذهنية أخرى بين المسلمين أنفسهم، إذ تجلت الخلافات الكلامية بين الطوائف والمذاهب الإسلامية على مر التاريخ على شكل صراعات دامية مثيرة للأحقاد السياسية، وبالتالي ازدياد الأحقاد والتشكيك العاطفي إلى درجة أنها حالت دون التعامل المنطقي مع القضايا المستعصية " [12].

3– ومن عوائق الحضارة التي تتحول إلى أصل في ماهيتها الطابع المستقبلي الذي يجعل البناء يسير في اتجاه واحد، ولعل هذا ما نراه في عصرنا (القرن الجديد) الذي تجسدت فيه مسوغات الحياة بزمن واحد(المستقبل)، وبكيفية واحدة هي الحضور في الزمن بمركزية تلغي الاخر.

ونخشى – بهذا الطابع – أن تكون الحضارة الانية المسيطرة (أمريكا وأوربا) قد عادت من جديد إلى أنانيتها التي تجسدت في الماضي باستعمار الأرض وتتجسد الان بقهر يجبر الاخر على الانخراط في مركزية تنعته دوما بالرقم الأخير، ويجب أن يكون كذلك لأن بنية

المركزية الانية المعولمة تستدعي المشاركة والحضور، ولن يقدر الرقم الأخير على فعل ذلك لأنه – ببساطة – لا يملك مسوغات الحضور.

وبالمعوقات نذكر أن الحوار قد يكون مغشوشا تجليه الريب والظنون التي تؤول بالحوار نفسه إلى سلوك استهلاكي ممسرح يبديه الظاهر الذي يضمر المكر " من جنس الدعوة إلى الحوار المسيحي الإسلامي المصحوب بسعي الفاتيكان الدؤوب لاقتلاع الإسلام من إفريقيا، أو من جنس الدعوة إلىالحوار العربي الإسرائيلي المصحوبة بسعي الأمريكان الدؤوب لاقتلاع الحصانة الروحية من الحضارة العربية الإسلامية " [13].

4- وفي العوائق سؤال خاص بالحضور الفاعل في مائدة الحوار وهو: ماهي الحضارة المؤهلة لإثارة المشكلات (موضوع الحوار) ولمنح الأجوبة (نتائج الحوار) ؟ والسؤال مهم لأن الحضور في مائدة الحوار متنوع متمايز – وإن بدا في الظاهر بغير ذلك – وبالتنوع والتمايز يبرز الخطاب بمستويات يحكمها منطق القوة والضعف، الذي يؤول إلى مركزية قوية تسأل وتجيب، وهوامش أخرى ضعيفة تحاور بصيغة الاستجداء.

ويتعقد العائق حينما يتعلق بمناطق معينة مثل حوض البحر الأبيض المتوسط، هذه المنطقة الجغرافية التي تتجلى بحضارات عديدة تحكمها كليات الزمان (الماضي والحاضر ومسوغات المستقبل) كما تبدو بتفاوت معرفي وبمختلف سلوكي وعقيدي... ففيها القوي والضعيف، وفيها المتغير والثابت، وفيها من يحاور أو يخاطب بالأنا، ومن يحاور ويخاطب بألسنة الاخرين وبمقوماتهم، ومثال ذلك (نحن) حين حاولت ثلة من العرب والمسلمين في جنوب المتوسط بخاصة ان تحاور الآخر بمالاتملك، فوقعت في المحظور الذي ألغى فيها الخصوصية وجعلها أصواتا بلا معنى، لقد بح صوت من نادى ذات يوم " أنا فرنسا وفرنسا أنا " دون أن يسمعه أحد من الجزائريين. كما بحت أصوات بعض المصريين الذين نادوا في أخريات القرن العشرين 1998 بمناسبة الاحتفال بذكرى حملة نابليون على مصر" نحن ديغول وديغول نحن".

واختفت أصوات اخرين لم يكتفوا بمحاورة الاخر بالاخر بل بمباركة هزيمتهم وانحطاطهم بشاهد حضاري سيء أنجزوه، ويتمثل في

زيارة بعض المثقفين العرب إلى تل أبيب، ومحاولة بعضهم الدخول في حوار موهوم عن طريق مؤسسات إعلامية غامضة، ومثال ذلك ما فعله جملة من الإعلاميين في الجزائر الذين زاروا تل أبيب عام 2001م، والمضحك في ما أنجزوه أنهم يرفضون محاورة بني وطنهم بصيغ الأمة وبهويتها فكيف يحاورون الآخر؟ والجواب واضح وهو أنهم قد اختفوا في الآخر فانتهوا !!.

- كما يتجلى العائق في الحضارات بصيغة الند الخفي الذي يترصد الاخر (ديانات - قوميات...) وبالمضمر المتعلق بالذاكرة في إطارها الفاعل بالاستعمار بعيدا عن الحوار، وهنا نذكر بعض الجهود التي حاول بها أهلها أن يتجاوزوا الخفي والمضمر، وأن يتحاوروا بالذاكرة بخاصة مثل (الأسكندرية وروما، وهران وقرطبة، الرباط وغرناطة، الجزائر وباريس هذا العام 2002) ونخشى أن يكون الجهد - بهذه الكيفية - محاولة بائسة في إطار الحنين الذي تشوبه شوائب الماضي المخادعة !!.

ماهية الحوار:

لعل الحوار من القضايا الكبرى التي رافقت البشرية منذ آدم وابنيه (القاتل والمقتول) إلى يومنا هذا، ويتجلى ذلك بشواهد بنيتها الحوار الذي يتداخل مع مصطلحات تجاوره في النسب المعجمي والاصطلاحي ومنها: (الجدال والجدل والتحاور والمناظرة، والمناقشة والمشاركة والتشارك..).

وفي الماهية نذكر أن أكبر شاهد على الاستعمال الجيد لمفهوم الحوار ومدلولاته، ومسوغاته وشواهده الحضارية القرآن الكريم، ففيه جاء الحوار بمعاني متعددة وبمستويات حياتية متنوعة شملت النبي وقومه، والحاكم والمحكوم، والأب والابن، بل تجاوزت الإنسان إلى الحيوان في إطار صيغة الإعجاز القرآني (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، فتبسم ضاحكا من قولها، وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) [14]

وبالشاهد القرآني كان تعامل الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - مع الناس كافة، فقد حاورهم بخطاب رحيم عادل حكيم، قال تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا

نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) [15]. وقال تعالى:(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن)[16] وفي شأن المحاور نفسه الحامل للرسالة قال تعالى: (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) [17].

فماهية الحوار عظيمة بالقرآن، وهي كذلك ما دامت فئة من المتحاورين(المسلمين) تتفاعل في موضوعات الحوار مع منطق القرآن والسنة الصحيحة , لكن المشكلة تكمن في خفوت المنطق القرآني حين تنافسه مرجعيات أخرى تؤول إلى جاهلية بنيتها المختلف، فحينها يفشل الحوار ويسود الصراع كما ساد أيام الأمويين والعباسيين، ومن شلكلهم من ذوي الملل والنحل.

ومع القران الكريم نرصد شاهدا تاريخيا دالا على حوار إيجابي وقع بين المسلمين وغيرهم، هؤلاء الذين فهموا الحوار تفاعلا وتجاورا مع الآخر بتكافؤ يضمن الوصول إلى الغاية، فأكبر نموذج للحوار الذي يحق للعرب والمسلمين أن يفتخروا به هو ذلك الذي وقع بينهم وبين الحضارة اليونانية والحضارات الأخرى، رغم ما شاب الحوار من نقص في الأداة المنهجية، وفي الصيغة المعرفية التي لم يقدر بها أهلها أن يتمثلوا النص القرآني تمثلا جيدا يضمن حضور الآخر بقوة الأنا (الفلاسفة المسلمون الذين تأثروا بالدرس الفلسفي اليوناني أنموذجا).

وبالرصد التاريخي المؤيد بماهية الحوار نذكر – بصيغة الفرق – أن أوربا قد تعاملت في بدايات نهضتها (ق16م)مع المنتج الحضاري الخاص بالعرب والمسلمين، لكنها لم تحاوره إلا قليلا لأن المحاورة تستلزم المشاركة بالتكافؤ , وذلك مالم تفعله الحضارة الأوربية في بداياتها , حيث عمدت إلى الأخذ عن المنجز الإسلامي دون أن تضع في حسابها صيغ التجاور التي لم تعد تهمها في إطار سباقها المحموم نحو الريادة .

ونعود إلى الماهية لنؤكد أن الفصل في مكوناتها لا يكون إلا بالمنطلق المنهجي والمعرفي المحدد للرؤية التي تحاور، والتي يجب أن تكون واضحة المقصد، عميقة النسق، مؤصلة بالإنسان السوي الماسك بأسباب الاستخلاف الحاضر في الزمن بالإيجاب، هذا الإنسان الذي تترتب على التزامه بالحوار، أو بمشاركة الاخر شروط حضارية محددة

أهمها ألا يتجاوز مصلحة الإنسان إلى مصالح أخرى مريبة تحضر حين الحوار المخادع.

فماهية الحوار إذن أن ينطلق الحوار أساسا من المدى الزمني المؤيد بالمعرفي والسلوكي الذي يؤكد استقراره وحضوره في وجدان الإنسان (المحاور)، لأن المشكلة لا تكمن في آليات الحوار، بل في أصله الذي يتشقق أولا وأخيرا من الإنسان، أو من الكلية الإنسانية المؤيدة بالكلية الكونية، يقول أحد الأساتذة: " إن الصور التي يرسمها حوار الحضارات عن الإنسانية إنما تتعلق بمقام الإنسان في العالم، فإذا ما استقر الإنسان في الخصوصي، والتزم حدود الهوية الثقافية المسطرة، لم يكن له من إقامته في العالم إلى حيز الجغرافيا، ويعني ذلك أن الهوية في أفق الحوار، إنما هي هويات قادرة على الغيرية والمغايرة ارتفاعا إلى معنى كلي للإنسان " [18]

وبكل ما مضى نذكر أن الحوار أخيرا هو: البحث بنسق حضاري يضمن التعايش في إطار الأفق المتنوع المؤيد بتكافؤ معرفي وسلوكي يحضر فيه الطرفان بصيغة المساواة لا بصيغة الأعلى والأدنى، والمساواة شرط أساسي، لأن الحوار الذي نعنيه هنا محكوم بمتغيرات القرن الجديد الذي لا يعني أبدا أن تحاور الآخر لتقنعه بتقمص عوالمك الخاصة، أو طرائقك أو جغرافياتك، فالحوار أن تتحقق سمة المساواة و الشراكة ليتحول إلى تفاهم مؤثر ومتأثر بدلا من تفاهم أفلاطوني ينجم عنه حوار يقوم " بين طرف واع عارف خبير، وآخر أقل وعيا ومعرفة وخبرة " [19]

تلك هي ماهية الحوار المحتمل الممكن بشروط نذكرها حين حديثنا عن شروط المتحاورين أهمها وأخطرها عدم تنازل أهل الحوار عن الخصوصيات التي تمنحهم السيادة في مائدة الحوار.

شروط المتحاور:

تأكد – بماهية الحوار– أن الحوار مسؤولية حضارية لا يتقنها إلا من وهب المرتكز الفكري والسلوكي الذي يضمن له الحضور الفاعل في مائدة الحوار، وفي ما يلي شروط نجملها لندلل بها على ذلك:

1– أن يقتنع المتحاورون بما يفعلون منهجا وسلوكا، وأن يدركوا أنهم مقدمون على عمل لا مكانة فيه للعابثين والحالمين، والماسكين

بو هم يرون به الحياة إلى حين، إن المتحاور يجب أن يعلم أنه قد وضع نفسه في دائرة تلزمه بالشراكة مع الآخرين كما تنقله من نقطة "أ" في الزمن الحضاري إلى نقطة "ب" بشروط تضمن الخصوصية الحضارية.

وفي هذا المجال نذكر بعض ما رصدناه من شواهد إيجابية تجلت بذاكرة أدرك فيه بعض علمائنا ومصلحينا المسوغات الإيجابية التي تؤهلهم للتعامل مع الاخر الذي سيؤول إلى كلية حضارية بنيتها الإنسان المستخلف في الأرض بالحق والعدل والعلم، نجد ذلك عند العلامة المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس (ت 1940م) الرئيس الأول لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست في 5 ماي 1931 م، هذا الرجل الذي أدرك ماهية الإنسانية وبها حدد ماهية النسب التي لا يجب أن تكون كما أرادتها فرنسا في الجزائر (مستعمر ظالم يقابله الأندجينا أو الأهالي) بل كما أرادها ابن باديس الذي ينحت مفهومه من الإسلام الذي أهداه أسس الشراكة والتجاور والتحاور، يقول بمستوى التدرج المعرفي: " فالإنسان من طفولته يحب بيته وأهل بيته، لما يرى من حاجته إليهم، واستمداد بقائه منهم، وما البيت إلا الوطن الصغير، فإذا تقدم شيئا في سنه اتسع أفق حبه، وأخذت تتسع بعد ذلك دائرة وطنه، فإذا دخل ميدان الحياة وعرف الذين يماثلونه في ماضيه وحاضره وما ينظر إليه من مستقبله ووجد فيهم صورته بلسانه ووجدانه وأخلاقه ونوازعه ومنازعه، شعر نحوهم بالحب بمثل ما كان يشعر به لأهل بيته في طفولته، ولما فيه - كما تقدم - من غريزة حب الذات وطلب البقاء، وهؤلاء هم أهل وطنه الكبير، ومحبته لهم - في العرف العام - هي الوطنية، فإذا غذي بالعلم الصحيح شعر بالحب لكل من يجد فيهم صورته الإنسانية، وكانت الأرض كلها وطنا له، وهذا هو وطنه الأكبر، هذا ترتيب طبيعي لا طفرة فيه ولا معدل عنه، فلا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من عرف واجب الوطن الكبير، ولا يعرف ولا يحب الوطن الكبير إلا من عرف واجب الوطن الصغير" [20]، هذه هي معادلة الحوار، فهل يستطيعها الأنا الآخر ؟ !.

2 - يتشقق الشرط الآتي من السابق ومعناه أن يعترف الأنا والآخر بتعادلية تثبت شركتهما الممكنة في الحوار، وفي الاعتراف إشكالية تستدعي حلا يضمن حضور المتحاورين بمستوى واحد: أ يقابله أ. والحضور بهذا المستوى صعب، فالواقع يفند ظاهرة المستوى الواحد،

ويؤكد وجود مستويين بشرخ كبير نجمله في المعادلة الآتية: المستوى الأول (المحاور رقم 1) قوي يملك المرجع وآليات الحوار، كما يملك موضوع الحوار، المستوى الثاني (المحاور رقم 2) ضعيف، لا يملك المرجع , ولا يعي موضوع الحوار، ولا مجال هنا لخطاب حالم يدعيه البعض من العرب والمسلمين خاصة، ويوهمون به النفس ويرون به إمكانية الحوار مع الآخر بالأنا. فالأنا تستلزم العمق المعرفي المشكل بالخاص، ونادرا ما ملكوا ذلك، في راهن الحوار والشراكة الأنية، فهم إذن يحاورون بما عند الآخر وهم رقم(2) في المعادلة.

3- أن يملك المتحاورون الرصيد المعرفي الذي به يحاورون، والرصيد هنا موكول بالسلامة المنهجية والفكرية التي تجعل ما عند الأنا مقبولا لدى الآخر، ولن يقبل ذلك إلا إذا تأصل بالسليم الخاضع لإنية الثقافة الحامل لعناصر الإقناع، ومثال السلامة ما نجده - مثلا - بين أوربا والعالم العربي في إطار إشكالية البنية الحضارية المؤسسة أنيا بمستويين نقرأهما بمناهج ومعارف مغايرة، فأوربا (الآن) ذات طبيعة شكلانية يحكمها المتغير العابر السريع المندرج في المصلحة، وهو المتغير المؤسس للسلامة المنهجية والفكرية عندها، ذلك لأن المنجز الحضاري في أوربا الآن لا يكون إيجابيا إلا إذا تأيد بالرصد اللحظي الذي ينتج ويراقب حفاظا على الفوقية.

أما العالم العربي فهو حاضر بطبيعة وجدانية قلقة، تتجاذبها صيغ الماضي والحاضر بضعف منهجي وبغموض معرفي، وطبيعي أن تغيب السلامة المنهجية والفكرية هنا، وأن يحل محلها الممكن أو المحتمل الذي يخضع بالجبر لمتغيرات الآخر الذي يفرض المشكلة والحل كما ذكرنا آنفا.

4- أن يدرك المتحاورون الانزياحات الكبرى التي تحدث في الحضارات، والتي بها يستطيع أهل الحوار أن يقرأوا بعضهم قراءة دقيقة تشمل كلية الزمن(الماضي، الحاضر والمستقبل)، والانزياح هنا داخلي وخارجي، ووفقه يجب أن يكون الإدراك الذي يشمل الأنا والآخر، ومثاله ما يمكن أن يدركه طرفان نفرض أنهما يتحاوران بحضارتين: عربية إسلامية، وأوربية مسيحية، فعليهما أن يبصرا بدقة الانزياحات الواقعة في الأنا قبل أن ينتقلا إلى حضارة الآخر.

مستويات المرجع (حوار أم صدام):

إن العنصر فرضته الموضوعية العلمية التي نؤكد بها أننا لا نريد الحديث عن الحوار بحلم أو بوهم، أو بخداع أراده البعض الذي تأيد بمسوغات غامضة تقف خلف وأمام كل منجز ينجزه في هذا المجال، فالحديث إذن مأمول بالحقيقة، ووفقا لذلك تأتي المستويات الاتية التي لا نعمل بها في إطار الحتمي الموصل إلى الحوار، بل يمكننا أن نوردها هنا بصيغة العائق الذي يجب أن يعي به أهل الحوار أن المهمة صعبة، وأنهم لن ينالوا ما يريدون إلا بجهد مشفوع بسنوات طوال من البحث النافع الصادق.

1- المستوى الأول (المرجع بين الديني والديني)

يتحدد الحوار في هذا المستوى بالفهم الدقيق للمكون المرجعي المتنوع باختلاف العقائد والأديان التي تشكلت بها حضارات مختلفة، وفي المستوى صيغتان للمختلف نوردهما بمرجعين دينيين حضرا بقوة في الحوار المشكل بالأنا والاخر وهما (الإسلام والمسيحية).

إن إدراك المتحاورين لجزئيات المرجع الديني ولبنياته المشكلة بالمتغير الخاضع للأزمنة والأمكنة مهم، بل وواجب، ذلك لأن هذا الإدراك هو الذي يحدد اليات الحوار وحدوده وفواصله وبدون ذلك سيؤول الحوار إلى النهاية، وسيحضر الصدام الذي يتشكل بخطاب ديني متطرف منغلق , ومثال من التشكل المتنوع المختلف الخاص بالديانتين المذكورتين يؤكد ذلك:

ففي الإسلام تشكل بالمصدر (القران والسنة) وفيه متغير مرجعي حصل بأزمنة المسلمين المتنوعة المتناقضة التي الت أخيرا إلى حداثي نافس المصدر والمرجع كليهما لكنه لم يستطع تجاوزهما أو إلغاءهما، فهما فيه حاضران بقوة، وهما الأساس في كل موضوع يناقش، وفي كل خطاب ينجز، وفي كل حوار أو تشارك يقام مع الاخر أيا كان هذا الاخر، والحل أن يفقه أهل الحوار هذا التدرج المرجعي الخاضع للتدرج المعرفي.

وفي المسيحية تشكل بالمصدر (الإنجيل) المتغير المحرف – كما يراه الاخر (المسلم) على الأقل- وفيها المتغير الذي حصل بأزمنة أوربا المتنوعة التي بلغت منتهاها في قطيعة تجسدت مع المصدر الذي

الإنسان، وبين مرجع حداثي مهيمن بالجديد المعتمد على " تحطيم الأطر التقليدية وتبني رغبات الإنسان الفوضوية التي لا يحدها حد " [21]

إن المستوى بهذه الكيفية معقد لأنه لا يعني مجرد صراع بين الديني والحداثي من اجل سلطة ما يجب أن تسود، بل المشكلة أن يتجسد الفرق الحرج في سلوك الإنسان وأن يستقر في وجدانه، بحيث لا يبدو بعدئذ إلا إنسانا قلقا حائرا ماسكا بالمتغير الذي تحول إلى قيمة حضارية يجب أن تسود.

والمستوى في علاقته بالحوار بهذه الكيفية مشكلة يجب أن يواجهها المتحاورون بتحد منهجي كبير، وبعمق معرفي، وبنبل سلوكي، لأن الأصل فيها أن يتم التعامل مع نقائض مرجعية تتجسد في الذات نفسها وفي الاخر من حولها كما تتجسد في الفروق المعرفية التي تجعل إنسان حوض المتوسط – مثلا – مختلفا متباينا في علائق تربطه بالدين وبالحداثة، فما في شمال المتوسط لا نجده تأكيدا في جنوبه، وفي مائدة الحوار يجب أن تحضر النقائض والفوارق والمشكلات كلها، ودونها يصير الحوار بلا معنى.

3- المستوى الثالث (المرجع بين الحداثي والعولمي)

في الحداثي القلق المتوتر، وفي العولمي المهيمن الحالم بمركزية عالمية، يصير الحوار أكثر تعقيدا لأن أصحابه سيواجههم العالم من حولهم بالأسئلة الاتية، أو سيواجهونه:

– ماهي موضوعات الحوار التي يجادلون بها وقد غدا العالم المعولم قرية واحدة، بموضوع واحد هو الاستهلاك السريع في الثقافة وفي الصناعة ؟ لقد جمع العالم الأجيال ووحدهم " كما لم تتمكن أية قوة أو مؤسسة أخرى من توحيدهم في التاريخ " [22]

– وكيف يمكن للمتحاورين أن يجمعوا بين مطمحين، أو رغبتين إحداهما ترجو العالم بالحداثي الجريئ الذي يمنحها الحرية في الفكر وفي السلوك، كما يهبها السلطة في الحوار وفي التعامل مع الآخر بكيفيات مختلفة أرادتها، بينما نجد الرغبة الأخرى بالعولمة التي تعمل في إطار الاستعباد – وإن رآها البعض بغير ذلك – الذي يجمع الناس في رغبات محددة لا يمكن تجاوزها(الثقافة واحدة، السلوك واحد، الاقتصاد واحد) وكل ذلك بإنسان واحد أو بإنسان مأمرك ؟!

هذا جزء من الصدام الحقيقي بين الحداثي والمعولم، وهو الجزء الذي يقلق الدول والأمم والحضارات، كما يقلق – تأكيدا – أهل الحوار الذين يرجون الجمع بشروط تضمن المساواة والتكافؤ، وهو الجمع الذي يصعب تحقيقه في ظل أفول سيادة الدولة، وبروز الحكومة العالمية.

مسوغات الإيجاب (الاتجاه نحو المستقبل)

نعلم جيدا- وبمسوغات سابقة – أن الحوار الجامع الموحد صعب المنال، وأنه حوار بمطمح صيغته الأمنية التي يحكمها الترجي (لعل)، والسبب أهل الصراع والصدام الذين يحضرون في الآن بقوة نافست الكلية الإنسانية وتجاوزتها إلى عوالم أخرى تحضر فيها المصلحة المؤيدة بأنانية الذات وجبروتها، والسبب أيضا أهل الأنا المعتدلون الخاضعون لأصالة معصرنة، هؤلاء الذين يدركون أن خصوصياتهم ليست عبثا، وأنهم لن يقبلوا أبدا أن يحاوروا بها الآخر في إطار شراكة تلغي بعضها أو ترجئه، أو تلقي به في المتاحف بعيدا عن يوميات الحياة.

فنحن – إذن- لا نبحث عن الحوار الموحد الجامع المشكل للرؤية بنسق واحد وإن تنوع فيه المعرفي والسلوكي، بل المهم عندنا أن نجد الصيغ والمناهج التي بها نتواصل مع بعضنا بغرض إذكاء المتفق عليه، والمشترك فيه وبهذا نذكر المسوغات الآتية التي يمكننا بها أن نتجه نحو الآتي بحركة إيجابية تضمن حضور الإنسان في الزمن الحضاري:

1- البحث في موائد الحوار بماهية الأصول المشكلة للحضارات والأمم، حتى يضمن المتحاورون التصور السليم للمشكلات والحلول.

2 – إيجاد ثقافة بسمات تجعل الحوار ظاهرة إنسانية، وفي هذا المجال نذكر أن دولا وشعوبا قد أساءت إلى البنية الثقافية حين جسدتها ببرامج ومناهج ذات نمط أناني فوقي، ولعله التجسيد الذي لا يمكنه أبدا أن يمنحنا مثقفا متحاورا، فالحل إذن أن نحاور ونجادل بمثقف جديد يملك سمات الأنا ويعي سمات الآخر.

3- اعتماد الأخلاقية العامة التي تصب في دائرة الإنسان المؤيد برسالة الاستخلاف، فمتى فكر المتحاورون بهذه الكيفية جاءت الموضوعات كبيرة جليلة غنية بالمشترك، مفعمة بالإنسانية التي يتجاوزون بها الإقليمي والجهوي...والقضية هنا لا تتعلق بالمتحاورين فحسب، بل هي مشكلة الإنسان نفسه الذي يجب عليه أن يعلم – في الآن بخاصة – أنه مقبل على أمرين باختياره، أولهما أن ينتصر للإنسانية التي تضمن مستقبله

وتصون كرامته، وثانيهما أن يجنح نحو القابيلية الذي تذكيها برامج ومناهج لا حصر لها، ويكون بذلك قد اختار حتفه، وهذا ما لا نرجوه.

4- اعتماد الحوار بصيغة المنجز الاستراتيجي الذي يحضر بمسوغات مستقبلية تضمن حضور الأنا والآخر في معادلة الحياة، وبهذا نذكر - مثلا- أن المتوسطية (بين الأنا والاخر) والمغاربية (بين الأنا والاخر) والخليجية (بين الأنا والآخر) ليست حشدا سياسيا أو اقتصاديا يفرضه الاني، بل هي الفيض المعرفي الذي يجب أن ينجزه الباحثون والمفكرون، وأن يعمل الاخرون (السياسي والاقتصادي...) على تجسيده بما يخدم الكل.

الهوامش:

1- محاضرات في حوار الحضارات/ ط1/ كتاب الثقافة الإسلامية/ المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية/ دمشق/ 1421هـ/ 2001م/ ص 326-327.
2- المعجم الوسيط/ مجمع اللغة العربية/ ص180، والقاموس المحيط/ج2/ ص10.
3- تاج العروس/ مج3/ ص 146.
4- أنظر: في فلسفة التاريخ/ د. أحمد محمود صبحي/ مؤسسة الثقافة الجامعية/ الاسكندرية/ د.ت ص 248.
5- أنظر: شروط النهضة/ مالك بن نبي/ ص 23 وما بعدها، ووجهة العالم الإسلامي/ ص54- 60.
6- أنظر: الحضارة الإسلامية، أسسها ومبادؤها/ أبو الأعلى المودودي/ القاهرة/ دار الأنصار/ د.ت/ ص 6 وما بعدها.
7- شروط النهضة/ مالك بن نبي/ ص 23.
8- الحجرات/ الآية 13.
9- الشعراء/ الآيات 128-129-130.
10- الملتقى الدولي حول حوار الحضارات/ تونس/ د.ت/ ص 58.
11- في مهب المعركة/ مالك بن نبي/ ص 43-44.

* - لقد دعا الدكتور خاتمي إلى الحوار بين الثقافات والحضارات بديلا عن المواجهة، وذلك في إطار ما تعانيه إيران من رصد صدامي تريده أمريكا باستمرار، واقترح عام 2001 عام حوار للحضارات، وألقى محاضرة بعنوان " حوار الحضارات والحاجة إلى أخلاق عالمية " في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في ماي 1999.

12- محاضرات في حوار الحضارات/ ص 333.
13- نفسه/ ص 27.
14- النمل/ الآية 18-19.
15- آل عمران/ الآية 64.

16- العنكبوت/ الآية 64.
17- ال عمران/ الآية 159.
18- الحوار بين الحضارات/ الملتقى الدولي/ تونس/ د.ت/ ص 30.
19- محاضرات في حوار الحضارات/ ص 325.
20- الإمام عبد الحميد بن باديس/ د محمد قاسم/ دار المعارف / ص 134.
21- الحداثة / مالكم برادبري.../ ترجمة مؤيد حسن فوزي/ دار المأمون/ بغداد/ ص 27.
23-عالم الفكر/ مج 28/ ع2/ أكتوبر ديسمبر 1999/ الكويت/ ص 79.